أفغانستان.. أين الخلل؟

لقد كنا نتجنب الحديث عن أفغانستان في الآونة الأخيرة لأسباب عديدة، فالحديث عن أفغانستان يُدمي القلب ويجرح المشاعر، فأفغانستان البطولة والجهاد، وأفغانستان الشهداء والأفذاذ، أضحت أفغاناً أخرىٰ: الديار هي الديار، والجبال هي الجبال.. ولكن بعض الرجال غير الرجال الذين عرفناهم! ما الذي حدث حتىٰ يجري هذا التحول؟! ما الذي حدث حتىٰ نرىٰ طلاب الشهادة يبحثون عن مغنم آخر من مغانم الدنيا؟! ما الذي حدث حتىٰ تتحول تلك الأسود الضارية التي عهدنا عنها الشجاعة والقوة في دين الله ـ تعالىٰ ـ، ومجالدة الأعداء، إلىٰ أسود تتشاغل في التهارش والتآكل والتدافع فيما بينها؟!

إن تجربة الجهاد الأفغاني تجربة فريدة من نوعها في مسيرة الصحوة الإسلامية المعاصرة، وجديرة بالتدارس والبحث والتحليل، وليس من الحكمة، بل ولا من الشرع، أن نضع رؤوسنا في التراب، ونتغافل عن رصد هذه التجربة سلباً وإيجاباً. ونحسب أن تحليل هذه التجربة واستكشاف معالمها وأبعادها الفكرية والعلمية مطلب في غاية الأهمية، ليس للأفغان فقط، بل لعامة أبناء الصحوة الإسلامية، العاملين منهم في الجهاد أو في غيره، ولعل المقدمة تكون لفتح قنوات الحوار لدراسة القضية. وبادئ ذي بدء أرىٰ من الضروري التنبيه علىٰ المسائل التالية:

أولاً: أن الدافع لهذه المقالة هو المحبة الصادقة لإخواننا المجاهدين، والحرص الكبير علىٰ سلامة الجهاد، فالتناصح بمحبة وإشفاق هو العلامة البينة لصدق

(*) نشرت هذه المقالة في عام ١٤١٨هـ، والصراع محتدم بين بعض الفصائل الأفغانية، وقد رأيت نشرها من أجل الاستفادة من تلك التجربة.

المحبة، قال جرير بن عبد الله البجلي: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم»(١). ولا شك عندي في أن البخل في النصيحة والسكوت عن الأخطاء من الخيانة التي لا ترضي الله -عز وجل-، وفي ذلك دلالة على ضعف المحبة والولاء.

ثانياً: ربما يرى بعض إخواننا قسوة في الكلمات، أو شدة في بعض العبارات، وأنا أعتذر عن ذلك سلفاً، وإن كنت حرصت حرصاً شديداً على تلمس ألطف العبارات، لعلها تلامس القلوب، وتلقى قبولاً حسناً إن شاء الله، وإن ندّ مني شيء لم أتداركه فأرجو الله -تعالى- أن يغفر لي، ويتجاوز عني وأؤكد لإخواننا أنني ما أردت إلا الخير فليحسنوا الظن، وليلتمسوا العذر، وهم أهل لذلك إن شاء الله.

ثالثاً: أن خطابي في هذه المقالة خطاب عام لا أخص به فصيلاً بعينه، ولا أقصد مخاطبة حزب محدد، فليس لنا -ولله الحمد- عداء مع أحد، ولا أحب أن يُحمَّل كلامي ما لا يحتمل، أو يظن أن كلامي من باب الهمز واللمز وتتبع العورات، فو الله الذي لا إله إلا هو إنني أنفر من ذلك نفرة شديدة، فقدوتنا رسول الله ﷺ الذي كان يقول: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا»(٢).

رابعاً: أنني لا أدعي الكمال والسلامة من المعايب، ففيَّ من النقص والتقصير ما الله به عليم، وأترفع عن التعالي والتعاظم على إخواننا، فليس ذلك من شيم المؤمنين، وإن كنت تجرأت على نصح إخواني فلمحبتي لهم، وأرجو الله أن يغفر لنا خطايانا.

---

(١) أخرجه: البخاري في عدة مواضع، منها: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: الدين النصيحة، (١/ ١٣٧)، رقم (٥٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، (١/ ٧٥)، رقم (٥٦).

(٢) أخرجه: أبو داود في كتاب الأدب، باب في حسن العشرة، (٤/ ٢٥٠)، رقم (٤٧٨٨)، وحسنه الأرناؤوط في تخريج شرح السنة، (١٣/ ١٤٣).

وفيما يلي محاولة مبدئية لتلمس مواضع الخلل، وجوانب التقصير في البنية الأفغانية:

أولاً: الخلل العقدي:

الشعب الأفغاني على الرغم من العاطفة الصادقة التي يحملها، والمحبة الظاهرة لدين الله - تعالى - شعب - كعامة الشعوب الإسلامية - تغلب عليه الجهالة، وقلة الفهم والوعي. ولهذا انتشرت الخرافة والبدعة، وقلّ العلم، وتوارث الناس ألواناً من الانحرافات والضلالات، وهُجرت السنَّة النبوية عند كثير منهم، وزاد في ترسيخ ذلك ثلة من الشيوخ الذين تصدروا قيادة بعض الجمعيات والمنظمات الإسلامية، ممن قلَّت بضاعتهم العلمية وتربوا في محاضن الصوفية، وأخذوا يدعون الناس إلى موروثاتهم البدعية، ويزينون لهم بعض اعتقاداتهم الشركية! ولما انتشرت الصحوة الإسلامية وبدأ الجهاد لمقاومة الغزو الشيوعي، انشغل الناس كبيرهم وصغيرهم، عالمهم وجاهلهم، في تجييش الناس وشحذ هممهم للقتال والفداء والتضحية، وكان الهم الأكبر الذي يشغل الأحزاب الإسلامية فتح معسكرات التدريب والإعداد للقتال، وغفل أكثرهم غفلة شديدة عن التعليم وتصحيح العقائد. ولما تنبه بعض المخلصين لهذا الشرخ العظيم، ودعوا إلى الاهتمام بالعقيدة وتعليم الناس المنهج الصحيح، صاح بهم الجهلة من أقطارها ورموهم بتهمة الوهابية، وأحسنهم حالاً من قال لهم: أنتم تفرقون الصفوف وتشتتون وحدة الجماعة، وتثيرون الفتنة.. و... و...!

أيها الأفغان: إن نشر العلم والعقيدة الصحيحة لا يتعارضان على الإطلاق مع الدعوة إلى الجهاد، وتربية الناس على البذل والتضحية والفداء، وتصحيح العقائد ليس تثبيطاً للهمم، وليس إشغالاً أو استهلاكاً للعزائم، بل إن العقيدة الصحيحة هي الدافعة والمحركة لمزيد من العطاء والتضحية، وكل دعوات الأنبياء

ـ عليهم الصلاة والسلام ـ إنما بدأت بتصحيح العقائد، وبناء المنهج الصحيح الذي يرسخ الإيمان في النفوس. ولا ننكر أن بعض من تبنى الاهتمام بتصحيح العقائد في أفغانستان لم يحسن بيان ذلك، وربما اتخذ أسلوباً هو إلى التنفير أقرب منه إلى التأليف. ولكن هذا ليس مسوِّغاً على الإطلاق لرد المنهج الصحيح، وإذا جاز هذا الجهل في حق العامة، فإن الشيوخ يجب عليهم أن يزنوا الحق بموازينه العلمية، ويقبلوا الحق من كل من قاله كائناً من كان، فالحق أحق أن يتبع.

إننا لم ندع إلى إيقاف الجهاد لأن بعض العامة كانوا يعلقون التمائم أو يمارسون بعض البدع القولية أو العملية، ولكننا كنا نطالب مراراً وتكراراً، بضرورة التعليم، ونشر السنَّة والتحذير من البدعة بالحجة والبرهان الشرعي الصحيح. ويجب أن تتسع الصدور لمثل هذا العمل الجليل ـ وإن خالف العوائد والمذاهب ـ فهو المنطلق والأساس. وتكثير الصفوف، وتجميع الناس على غير هدى ليس من علامات القوة، أو من عُدد النصر، والمجاهدون لا يخفى عليهم قول الله ـ تعالى ـ: ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ [**البقرة**: ٢٤٩].

وفي الوقت نفسه لا نرى أبداً جواز تعاون المجاهدين مع قوم انتشر فيهم الشرك الأكبر الصراح. فيكف يتنزل نصر الله ـ تعالى ـ ومن بيننا من يطوف بالقبور مستغيثاً بها، أو يذبح لغير الله، أو يدعو غير الله..؟! إن الأمر جد خطير، والطريق واضحة بينة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [**يوسف**: ١٠٨].

إن العناية بأمر التوحيد من أولى الأولويات الواجبة في إعداد العدة، ولا يجوز بأي حال من الأحوال أن يُقصِّر المجاهدون أو غيرهم في رعاية هذا الأمر والحرص عليه، وقد كانت هذه وصية النبي ﷺ لمعاذ لـمَّا بعثه إلى اليمن، حيث قال له: «ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؛ فإن هم

أطاعوا لذلك فاعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة؛ فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم»[١].

ثانياً: الخلل المنهجي:

الوضوح المنهجي والدعوي مطلب أساس لسلامة المسيرة الجهادية والدعوية، ومعرفة أصول الائتلاف والاختلاف، وقواعد الولاء والبراء، هي المنطلق الرئيس في اتخاذ المواقف العلمية الصحيحة. كما أن تقدير المصالح والمفاسد والموازنة بينهما، ومعرفة خير الخيرين وشر الشرين؛ يحتاج إلى فقه دقيق بالنصوص الشرعية ومقاصدها، ووعي عميق بالملابسات العلمية والفكرية المحيطة بها، ومن ثم يتم التعامل مع المتغيرات السياسية والفكرية المختلفة بموازين شرعية محكمة واضحة المعالم، بعيداً عن المواقف العاطفية والاجتهادات الارتجالية. ومشكلة أكثر الأحزاب والجمعيات الأفغانية هو غياب تلك الرؤية المنهجية الشرعية الصحيحة، وضعف البضاعة العلمية، وظهرت علامات ذلك بارزة جلية في التحالفات المشبوهة مع بعض الأحزاب والاتجاهات الصوفية المفرطة في خرافيتها، أو بعض الأحزاب الباطنية التي تعلن توجهها الرافضي، بل العجيب أن بعض الأحزاب لم ير مانعاً من عقد التحالفات المتكررة مع بعض الأحزاب الأفغانية الشيوعية، أو الأنظمة العلمانية المجاورة، لمصالح سياسية متوهمة، أو بسبب ضغوطات مالية وعسكرية معينة. ولا يخفى على القادة الأفغان أن بعض الزعماء كان لديه اتصالات متكررة مع أمريكا وحلفائها، وقد أغضب ذلك بعض القادة حيناً من الوقت، ومع ذلك استمر التعاون معهم، بل

---

(١) أخرجه: البخاري في عدة مواضع، منها: في كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، (٣/ ٢٦١)، رقم (١٣٩٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين، (١/ ٥٠)، رقم (١٩).

والانضواء تحت قيادتهم أحياناً، مع أن كثيراً من العلماء والمفكرين حذرهم من ذلك مراراً!

إن ثمة نتائج محزنة جداً بدأت منذ الأيام الأولىٰ للجهاد الأفغاني، فكم عانىٰ بعض المجاهدين من التخبط والاضطراب! وكم عصفت ببعضهم المحن والفتن! وكم رأينا من اختلال الموازين وتقلب المواقف والآراء، والمساومة، بل والتنازل عن بعض المبادئ والمسلَّمات الشرعية!

إن الوحدة الإسلامية، واجتماع الكلمة تحت راية واحدة، مطلب أساس متفق عليه إن شاء الله. ولكن الله ما أمرنا أن نجتمع مع كل أحد؛ فهل صحيح أن تبنىٰ الوحدة علىٰ أسس علمية وفكرية هشة يسري فيها الأذىٰ من أصولها؟! لقد أضحت بعض الأحزاب المنحرفة عقدياً معاول هدم وتدمير، تخلخل الصفوف، وتبعدها عن الصراط المستقيم، وما لم تتخذ مواقف واضحة وصريحة من هذه الأحزاب؛ فإن الداء سوف يستفحل، وزاوية الانحرف سوف تزداد باطراد مستمر.. نسأل الله لإخواننا السلامة من ذلك!

ولما كان المجاهدون منشغلين بمواجهة الشيوعيين، لم يتضح ذلك الخلل المنهجي بجلاء إلا عند الصفوة الواعية، وإن تكلم أحدهم ناصحاً بصدق وإخلاص اتهموه بالتخذيل والتثبيط والإرجاف! فانفض عنه الناس وتفرقوا، فانتشر الداء انتشار النار في الهشيم، وأخذ ينخر في الصفوف الخلفية خاصة نخراً شديداً، وإن بان شيء من إفرازات ذلك المرض عند العامة أو بعض الخاصة، كانوا يتناسونه ويتشاغلون عنه بمجاهدة الشيوعيين، أما وقد انهزم الشيوعيون، وفتحت كابل، بان ذلك الخلل للقاصي والداني، وانكشفت الصورة علىٰ حقيقتها، وأصبح الناس في هرج ومرج، نسأل الله ـ تعالىٰ ـ السلامة من كل إثم.

أحبابنا الأفغان: نحن نعلم أن المؤامرات على المجاهدين كثيرة، ونعلم أن الضغوط تحيط بهم من كل مكان، ولا يخفى علينا كثرة المتربصين الذين يجلبون بخيلهم ورجلهم لقطف ثمرة الجهاد، ولكن ألا يقوى الذين صبروا على مواجهة الزحف الشيوعي الأحمر على مواجهة بقية الأعداء والدخلاء من بينهم؟! إن الطريق جد صعبة والمصاعب كثيرة، ولن يقوى على تحمل ذلك إلا الأئمة الأقوياء بإيمانهم. ونرجو أن يكون إخواننا عند حسن الظن بهم.

إن طبيعة هذا الدين جلية ـ ولله الحمد ـ وقد جاء تأصيلها في الأيام الأولى لنزول القرآن الكريم، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾ [**الكافرون**: ١ - ٦]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿**وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ۝٧٣ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ۝٧٤ إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا**﴾ [**الإسراء**: ٧٣ - ٧٥].

ثالثاً: الخلل التربوي:

للتربية الجادة أثر كبير في بناء الرجال، فهي الأساس في إعداد النفوس وتزكيتها وتطهيرها. والتضحية بالنفس أو المال أو الأهل والولد، منزلة عليّة سامقة، تتطلب قلوباً مؤمنة، قوية بالطاعات، رسخ فيها اليقين، واطمأنت بذكر الله ـ تعالى ـ والإخبات إليه، ولهذا أمر النبي ﷺ أصحابه بقيام الليل والذكر وتلاوة القرآن، لكي تستعد النفوس لتحمل الأعباء العظيمة التي ستكلف بها، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝٢ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً**﴾ [**المزمل**: ١ - ٣]. ولهذا لم يأمر النبي ﷺ أصحابه بالقتال إلا بعد سنين متتابعة من الإعداد والبناء والتربية.

فإذا تقرر ذلك، دعونا ننظر في الواقع الأفغاني، وبادئ ذي بدء نحن لا نشك في بسالة الأفغان وشجاعتهم، ونكبر فيهم الروح المتقدة قوة وحماساً، فقد علمونا أروع الأمثلة في الصبر والتضحية. ولكن عندما بدأ الجهاد رفع الناس جميعهم ـ من مختلف شرائح المجتمع ـ راية الجهاد، والتحقوا بالصفوف القتالية مباشرة، وقادة الجهاد لا يخفىٰ عليهم أن كثيراً من هؤلاء القوم قد لا يحسن حتىٰ أداء الصلاة وقراءة القرآن، وقد لا يسلم من بعض كبائر الذنوب. ونؤكد هنا علىٰ أننا لا نطالب بالعصمة المطلقة من الذنوب، ولا نطمح بأن يكون الجهاد في أفغانستان عملاً نخبوياً؛ ولكن كنا نتمنىٰ الاهتمام الأكبر بإعداد المحاضن التربوية التي تزكي النفوس وتطهر القلوب وترعىٰ رجالات الأمة رعاية إيمانية كريمة، والأمة التي يراد منها تغيير مسار التاريخ ومواجهة قوىٰ الشرق والغرب، ومقارعة الظالمين، يجب أن تكون مؤهلة تأهيلاً يليق بتبعات هذه الأمانة العظيمة، قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [**السجدة**: ٢٤]، قال الإمام الثوري: «بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين».

رابعاً: الخلل التنظيمي:

بدأ الجهاد الأفغاني والناس أحزاب متفرقون، كل حزب له قيادته الخاصة، ثم توسع الجهاد وتكاثر أنصاره ومؤيدوه، فازدادت الأحزاب تفرقاً، وازداد تنافسها واختلافها، بل تنابذها وتهارشها، ولما جاء المجاهدون العرب وغيرهم إلىٰ إخوانهم الأفغان، جاؤوا يحملون اختلافاتهم وانتماءاتهم الحزبية والفكرية، وبعض هؤلاء الأنصار كان تقياً ورعاً واعياً، وبعضهم كان دون ذلك ورعاً وفهماً! وزاد في ترسيخ ذلك التفرق والتعصب الحزبي أن بعض المتبرعين لتمويل الجهاد كانوا يعطون هذا الحزب ويتركون الآخر، ويقدمون مساعدات مشروطة ترسِّخ مبدأ التفرق والتحزب!

ولما أحس المخلصون بخطورة هذا التصدع والتفكك الداخلي في جسم الجهاد الأفغاني، وأثره الخطير في الفشل وذهاب الريح، حاولوا مراراً وتكراراً تقريب وجهات النظر وتوحيد الصفوف، وكانت تتم في بعض الأحيان تحالفات شكلية هشة سرعان ما تتصدع وتتهاوى عند أي اختلاف ميداني؛ لأنها مبنية أصلاً على مبدأ «عدم الثقة»!، بل قد يصل الحال أحياناً إلى تصفية الخلافات عسكرياً، فيُقتل من يقتل، ويجرح من يجرح، ويظهر مبدأ استعراض القوة والغلبة عند بعضهم، حتى أصبحت الساحة الأفغانية في يوم من الأيام ساحة لمختلف ألوان الصراعات الحزبية، تحوي شتى أمراض الجماعات الإسلامية في مختلف أنحاء الأرض، ومع ذلك كله كان الأمر مستتراً نسبياً؛ لأن الأحزاب جميعها منشغلة بالأعمال العسكرية الميدانية، ويهددها عدو مشترك. ولكن عندما سقطت الحكومة الشيوعية وتهاوت حصون كابل، تفرغت الأحزاب بعضهم لبعض، وعادت لتصفية حساباتها، فكشرت الخلافات عن أنيابها، وتحولت بعض الحملان الوديعة إلى أسود كاسرة، وظهر الولاء الحزبي والقبلي فوق كل اعتبار، فالراية الحزبية والقبلية عند بعضهم تعلو على كل الرايات، وأصبح بعض الناس يدينون بالولاء المطلق لشيخ القبيلة، ثم رأينا بعض قادة الأحزاب والجمعيات الإسلامية - مع الأسف الشديد - يستثيرون حمية أنصارهم، ويستدعونهم باسم القبيلة، ويتناصرون باسمها، حتى هان على بعض المسلمين أن يشهر السلاح على أخيه المسلم، بل أن يتجرأ على قتله والعياذ بالله!

إن التعصب الحزبي الأعمى، وعقد اللواء باسم الحزب والقبيلة، من الآفات الخطيرة التي تمزق وحدة الأمة، وتشتت صفوف الجماعة، وتشغلها بالقيل والقال وتوافه الأمور وسفاسفها.

ولا شك في أن تمكن هذه الأدواء في بعض صفوف المجاهدين أدى إلى

إنهاكهم وتصدع أركانهم، والرزية كل الرزية أن تنتكس راية الجهاد، وتضل طريقها، وتُهدر ثمرات ذلك الجهاد المبارك الذي ظل يستنهض همم المجاهدين، ورجالات الأمة في أنحاء المعمورة، وقد قال رسول الله ﷺ: «من نصر قومه على غير الحق، فهو كالبعير الذي رُدِّيَ، فهو يُنتزع بذنبه»(١).

وأذكِّر - والذكرى تنفع المؤمنين - بقوله ﷺ: «من قُتل تحت راية عِمِّيَّة، يدعو عصبية، أو ينصر عصبية؛ فَقِتْلَةٌ جاهلية»(٢).

---

(١) أخرجه: أبو داود في كتاب الأدب، باب في العصبية، (٥/ ٣٣١)، رقم (٥١١٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم (٦٤٥١).
(٢) أخرجه: مسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين، (٣/ ١٤٧٨)، رقم (١٨٥٠).

الكنز المفقـود

أكثر مـن سبعيـن عـامـاً عاشها المسلمون في روسيا وآسيا الوسطىٰ تحت أسوار القفص الحديدي الشيوعي . . أكثر من سبعين عاماً من القهر والاستبداد والتسلط . . أكثر من سبعين عاماً صبَّ فيها الشيوعيون كل ألوان الطغيان والقتل . . أكثر من سبعين عاماً مُحي فيها التاريخ بالقوة، ومُسخت الهوية، وأصبح مجرَّد الانتساب إلىٰ الإسلام جريمة عظيمة ليس لها عقوبة إلا الإعدام .

وفجأة يتحطم ذلك القفص، وتتمزق أجزاء تلك الإمبراطورية الحمراء، وتنطلق كل الأعراق والأجناس في البحث عن هويتهم المنتزعة، وتاريخهم المفقود، حتىٰ الروس أنفسهم عادوا إلىٰ الاعتزاز بالقيصرية الروسية، وراحوا يُشيِّدون الكنائس الأرثوذكسية، ويُظهرون معالم الصليب . وانطلق المسلمون ـ من حيث الجملة ـ مع من انطلق في تلك العودة، وعادت المآذن ـ بحمد الله ـ تعلو من جديد، وسمع الناس أصوات التكبير تعطِّر الأجواء .

عاد الناس بعاطفتهم المتشوقة إلىٰ الإسلام، يحدوهم الحنين والتطلع إلىٰ ماضٍ عريق عاشته أمة الإسلام في ديارهم .

ذهب أحد الدعاة إلىٰ ريف من أرياف المسلمين هناك، وأعطىٰ نسخة من القرآن الكريم لعجوز مسلمة ربما جاوزت الستين عاماً، ففتحت عينيها مستغربة، تملؤها الدهشة، ثم جالت في نفسها ألوان من الأفكار والمشاعر، وفجأة أجهشت بالبكاء، وأخذت تقبِّل المصحف وتقلِّبه علىٰ وجهها، ثم راحت تجري تنادي أبناءها، وتتحدث معهم بلهفة، وكأنها تعرِّفهم بكنز مفقود طالما انتظروا الحصول عليه، ثم التفتت إلىٰ الداعية وقالت له : لقد كان أبي

يُحدثنا أن جدَّه كان يملك نسخة من القرآن الكريم يتلو فيها على أبنائه . . !!

وبعد أحاديث عابرة أراد صاحبنا أن ينصرف مع رفاقه، فأبت عليهم، وألحَّت عليهم إلحاحاً شديداً إلاَّ دخلوا بيتها؛ فقَبِلوا دعوتها تطييباً لخاطرها، ثم قالت على استحياء: هل يتيسّر لكم أن تعلِّموا أبنائي سورة الفاتحة، أما أنا فقد ذهب عمري . . ؟! ولمَّا أرادوا الانصراف قالت لهم: ليس عندي ما أجازيكم به، ولكن أرجو أن تقبلوا هذا - وأخرجت عملة روسية (الروبل) - عرفاناً بجميلكم ووفاءً بحقكم . . !!

إنها عاطفة بدأت تدبُّ فيها الحياة من جديد، لكنها في أغلب الأحوال عاطفة غير موجهة التوجيه الصحيح، وغير مستثمرة الاستثمار الأمثل؛ فالجهل يضرب بأطنابه في عقول الناس، ولهذا أصبح الانتماء إلى الإسلام عند كثير من الناس جزءاً من الانتماء العرقي والتاريخي، وأدى ذلك إلى انسياق عامتهم وراء حملات التغريب والعلمنة التي قادتها أمريكا وأوروبا التي افتتن فيها الناس جميعاً بمختلف أديانهم وأعراقهم، بعد أن تخلصوا من جحيم الكبت والذلة. لقد حرص الغرب على تصدير الحضارة الأخلاقية والاجتماعية الغربية إلى روسيا والجمهوريات المختلفة، وعدَّها سوقاً استهلاكية يسهل غزوها والتأثير عليها.

بل إن حملات التنصير الكاثوليكية والبروتستانتية لما وجدت الصدود والاستنكار من الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا الاتحادية وغيرها، وجَّهت حملاتها التنصيرية إلى مناطق المسلمين وبخاصة كازاخستان وأوزبكستان وطاجكستان، ووجدت فيها أرضاً خصبة يسهل غزوها والتأثير عليها.

إنَّ المسلمين في روسيا الاتحادية وآسيا الوسطى يمثلون عمقاً استراتيجياً في

غاية الأهمية، كما يمثلون ثقلاً بشرياً لا يمكن الاستهانة به على الإطلاق، ولكن مع الأسف الشديد كان الملتفت الأكبر لهم من المسلمين: تركيا العلمانية، وإيران..!! فهل ندرك أهمية تلك المناطق.. أو نطويها كما طويت مناطق أخرى من مناطق المسلمين..؟!

وهل نسعى بجد إلى إعادة الهوية الضائعة إلى المسلمين..؟! وهل نستغل تلك العاطفة المتقدة في نفوسهم، أو ننساهم كما نسينا غيرهم..؟!

براءة اختراع

من مجاهل الأزقة المهجورة (العدامة) ثم (الشميسي) و (الكراديب) إلى أعشاش (شقة الحرية). . توثيق وتأريخ لأنشطة رجالات الأحزاب القومية والبعثية والثورية، فيها جرأة فكرية واضحة - ممزوجة بجرأة غير أخلاقية مقززة ومفتعلة - وكأنها تقول: كانت تلك هي البذور الأولى للرفاق المناضلين، وها هي ذي ثمراتها.

تمثل هذه الروايات حالة التمرد والغليان الفكري من الخمسينيات إلى السبعينيات الميلادية التي كانت تضطرب بها الأمة العربية، ولكنها خرجت في شكل تمرد على القيم والأخلاق والثوابت الفكرية والجذور التاريخية، ثم انتهت إلى حالة التشتت وضياع الهوية الفكرية التي كانت تسيطر على الشباب العربي في تلك الفترة. وكان من إفرازات ذلك: الالتفاف حول الشعارات الثورية، والجري اللاهث وراءها ظناً منهم أن فيها الخلاص والمخرج من المأزق الذي تعيشه البلاد العربية. كانت الشعوب العربية تردد بكل غفلة: (من الخليج الثائر. . إلى المحيط الهادر. . لبيك عبد الناصر)! وكانت الأكف لا تفتر عن التصفيق والتسبيح بحمد القيادات الثورية.

ظلّت تلك الشعوب تسْبح في خيالات من الوهم الزائف، وكأنها قد ملكت زمام الأمور، وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من النصر! وإذا بها تستفيق من غفلتها بعد أن دُكّ الطيران المصري وهو على أرضه. . وظهرت الفضيحة المدوِّية التي لم تغطّ عليها إلا بيانات (صوت العرب) التي تبشر بالنصر المؤزر، وإخفاق الخطط الإمبريالية؛ فالقائد (البطل) ما زال حيّاً. . !

تربى شباب (الحرية) و(العدامة) على مبادئ الرفاق: ماركس، ولينين، وجيفارا، ورددوا شعارات ميشيل عفلق، وياسين الحافظ، وتقلبوا في أحضان القومية والماركسية والبعث الاشتراكي. وبغضّ النظر عن الرمزية في تلك القصص ومدى الصدق في أحداثها وأسمائها، فإن فيها دلالة واضحة على الخلفية الفكرية لتلك الرموز الفكرية.

ودعُونا نسأل هنا سؤالاً عابراً(١)! : ها نحن نصل إلى نهاية التسعينيات الميلادية، وبعد أن خبا صوت تلك الشعارات الثورية الزائفة؛ فما الذي جناه العرب من تلك الشعارات والأحزاب (النضالية)؟! وما الذي استطاع أن ينجزه هؤلاء الرفاق بعد مسيرة طويلة من التمرد والسخرية من (مخلفات الماضي وتقاليده (البالية)؟!

إنها حالة من التيه والتطلع إلى السراب في صحراء لاهبة محرقة لا خضرة فيها ولا ماء.. حالة من التخبط والتردي جرّت الأمة من مأزق إلى مأزقٍ، وكانت النهاية في (سلام الشجعان!)، ثم نرى الرؤوس - ثانية - تستدير من الشرق الأحمر حيث يسقط المنجل والمطرقة، إلى الغرب الأبيض حيث يرتفع تمثال الحرية..!!

إن تزييف الحقائق، وتغيير اللبوس، وإجادة فنون التقلب والتشكل، لن يغير من الحقائق شيئاً على الإطلاق، فهل يعي هؤلاء مقدار الدمار والخزي الذي جَنَوه على هذه الأمة؟.. أو أن مقتضيات المرحلة تستدعي اكتشاف شعار جديد لينال أصحابه براءة اختراع نضالية..؟!!

---

(١) أحد أبطال قصص العدامة والشميسي والكراديب اسمه: (هشام العابر)!

شاعر الخليفة.. والصحافة العربية!

تهتم وسائل الإعلام العالمية بالتجديد والتنويع لجذب القراء وتشويقهم، أما الأبواق العربية فقد أخذت بطرف من هذه الفكرة سبيلاً للتغير والتلون؛ فما يكون صحيحاً وفتحاً كبيراً في هذا اليوم، يكون باطلاً وعملاً لا قيمة له في الغد، فلا توجد ثوابت منطقية أو إعلامية، فكل شيء متحول ومتجدد إلا (الرغبات السياسية).. !

الكاتب يُعدّ قوميّاً في هذه السنة، وطنيّاً في السنة الأخرىٰ، ثوريّاً في الثالثة.. وصل بعض هؤلاء الكتاب إلىٰ قمة الإبداع في التزوير وقلب الحقائق، فالكاتب المتمكن هو الأقدر علىٰ الكذب والتلفيق، وتسمية الأمور بغير مسمياتها.. !!

حرب ١٩٦٧م ليست هزيمة، بل هي نكسة.. بل انتصار عظيم؛ لأن الزعيم العربي الملهم! ما زال علىٰ عرشه، عاضّاً عليه بالنواجذ.. !.

(بيريز) الأمس مجرم سفاك إرهابي.. أما (بيريز) اليوم فهو حمل وديع وطفل بريء محب للحرية والسلام.. !

(إسرائيل) الدولة الصهيونية المحتلة المغتصبة.. أصبحت بين عشية وضحاها دولة عضو في هيئة الأمم المتحدة، لها - كما لغيرها! - الحق في أن تعيش بسلام مع جاراتها الصديقات.. !

الثابت الوحيد الذي لا يتغير بتغير الأقنعة والشعارات، ولا يتبدل بتبدل المصالح والتقلبات النفعية، هو الهجوم علىٰ الإسلاميين.. المتطرفين.. الإرهابيين.. (!!)

ولعلّ بعض الكتبة في صحافتنا العربية من أحفاد ذلك الشاعر الفاطمي الذي رأىٰ الزلزال يهز مصر، فتتساقط الضحايا، وتهدم الممتلكات، ويعم الخوف والهلع.. فتجود قريحته الإعلامية بأبيات خاطب فيها الخليفة.. قال فيها:

ما زُلزلتْ مصر من خَطْبٍ ألمّ بها لكنَّها رَقَصَت من عَدْلِكُم طَرَبَا!

وصدق الصادق المصدوق ﷺ: «إنّ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولىٰ: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت»(١).

(١) أخرجه: البخاري، في كتاب الأدب، باب إذا لم تستحي فاصنع ما شئت، (١٠ / ٥٢٣)، رقم (٦١٢٠).

درس لا يُنسى..!

كنت في رحلة إلىٰ مدينة (وجير) في الشمال الشرقي لجمهورية كينيا، وبعد تجوال طويل بين القرىٰ المختلفة، توقفت بجوار مجموعة من الصبيان تحلقوا لقراءة القرآن الكريم بين يدي شيخهم تحت ظل شجرة، هرباً من لهيب الشمس المحرق، رأيتهم يكتبون القرآن الكريم بالفحم علىٰ ألواح خشبية بطريقة بدائية، ويرددون مقطعاً من سورة: ﴿قٓ﴾ بصوت متخشّع يأسر القلوب.

ورأيتُ شيخهم يُمسك نسخة قديمة ممزقة الأوراق من كتاب: (الأصول الثلاثة) باللغة السواحلية، ذكر أنه استعارها من صاحب له، فسألته عن طلابه وحرصهم علىٰ الدرس والحفظ؟! فطأطأ رأسه قليلاً، ثم تنهد بعمق.. وقال: جاءت إلينا إحدىٰ الإرساليات الكنسية العريقة منذ أكثر من عشرين عاماً، وها هي ذي الآن تتعاهد أبناءنا بالقصص المصورة الموجهة بلغتهم المحلية، فتشدّهم بألوانها البراقة وأساليبها الجذابة، كما توزع الإنجيل والكتب والمجلات التنصيرية، وتقيم الاحتفالات والبرامج الشبابية المتعددة لاحتواء المسلمين وفتنتهم..

ثم نظر إليّ نظرة ملؤها الأسىٰ والعتب، وقال لي بحياء: أين المسلمون؟! حتىٰ أنت تصافح الصبية بحرج حتىٰ لا تتسخ يدك.! ولكن دع النصارىٰ يفعلون ما يريدون فنحن علىٰ ثقة من ديننا، حتىٰ ولو كنا تحت شجرة ولم نجد إلا ألواح الخشب..!!

غادرت المنطقة وقد اغرورقت عيناي بالدموع، وأنا أحمد الله ـ تعالىٰ ـ حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه الذي حفظ كتابه العزيز وحفظ دينه الكريم، فعلىٰ الرغم من

الفقر والمرض والجهل، وعلى الرغم من العزلة والانقطاع، والبعد في تلك المناطق النائية والأدغال الوعرة؛ تجد هؤلاء الصبية يتحلقون لتلاوة كتاب الله - تعالى - بكل اطمئنان وثقة.

لقد تعلمتُ في التربية درساً لا يُنسى.. فالبذل لهذا الدين والتضحية من أجله ليست شعاراً يُرفع أو دعوى يُتشدق بها، وإنما هي وليدة عقيدة راسخة في القلب تثمر الصدق والفاعلية.

لقد تعلمتُ في التربية درساً لا يُنسى.. فكم هي الأموال التي ننفقها في الإسراف والبذخ والتوسع في المباحات، فضلاً عن الملاهي والمحرمات..؟!

ولم أعجب من جهود المنصرين وأنا أقرأ قول الله - تعالى -: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ** ﴾ [**الأنفال**: ٣٦].

ولكنني عجبت أشد العجب من تقصيرنا وتفريطنا - نحن المسلمين - فكتاب الله - عز وجل - لم نستطع إيصاله لعموم المسلمين، فضلاً عن ترجمة معانيه وتفسيره.. فضلاً عن تقريب السنَّة النبوية وترجمتها، وتيسير العقيدة الصحيحة المبرأة من الشركيات والبدع..!!

ما أعظمها من أمانة..!

وما أجلها من مسؤولية..!